تأبى الحصر في الأقفاص وإن تكن من الذهب والياقوت والألماس. أما تراها في قطرة الماء كيف تغدو بخاراً، وفي الحطبة كيف تصبح ناراً، وفي البذرة الميتة كيف تنفض عنها الموت لتتعالى إلى السماء نبتة هيفاء أو دوحة وارفة، وفي بيضة الطير كيف تنقف منها كائناً يمتطي الريح ويسوقها بالأغاريد، وفي نطفة الإنسان كيف تنطلق منها جسداً عجيباً غريباً، وفكراً يجوب الأرض والسماء، وخيالاً يطوي مهامه الآزال والآباد، وإرادة تسعى بغير انقطاع إلى التسلّط على كلّ منظور وغير منظور؟

أجل. هي الحياة المجسدة تسعى إلى الانفلات من أجسادها. وهي ما تجسّدت إلّا لتعرف ذاتها. لذلك لا تنفكّ في حركة دائمة وتجدّد سرمدي تسوقها الغريزة العمياء أوّلاً والإرادة المبصرة فيما بعد. والإنسان ـ ذلك الحيوان المستحدَث من جماد ـ ما يزال في بدء عهده بالإرادة المبصرة وفي بدء صراعه مع الغريزة العمياء. وصراعه سيكون قاسياً ومرّاً وطويلاً. ولكنّه لن يلقي سلاحه حتى تكون له الغلبة، وحتى تنساق غريزته لإرادته فيخلق عالماً يليق بعظمته وبجمال الحريّة التي يشتاقها بكلّ قلبه وفكره وخياله.